

الأمثل في تفسير كتاب المنزل

[405] وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَتَجَاوَزَ كُلَّ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَى أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) تَفِيدُ فِي أَنْ الرَّجَالَ الَّذِينَ سَيُؤَدَّبُونَ "بَنِي إِسْرَائِيلَ" عَلَى فِسَادِهِمْ وَعَلَوْهُمْ وَطَغْيَانِهِمْ، هُمْ رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ، شَجَعَانٌ حَتَّى اسْتَحَقُّوا لِقَابَ الْعِبُودِيَّةِ. وَمِمَّا يُوَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي غَفَلَتْ عَنْهُ مَعْظَمُ التَّفَاسِيرِ، هُوَ كَلِمَةُ "وَبَعَثْنَا" وَ"لَنَا". وَلَكِنَّمَا مَعَ ذَلِكَ، لَا نَسْتَطِيعُ الْإِدْعَاءَ أَنَّ كَلِمَةَ "بَعَثَ" تَسْتَعْمَلُ فَقَطْ فِي مَوْرَدِ خُطَابِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، بَلْ هِيَ تَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ أَيْضًا، فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: (فَبَعَثَ اللَّهُ غَرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ) (1). وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي كَلِمَةِ "عِبَادٌ" أَوْ "عَبْدٌ" فَهِيَ تَطْلُقُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى الْأَفْرَادِ غَيْرِ الصَّالِحِينَ مِنَ الْمَذْنُبِينَ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا فِي الْآيَةِ (58) مِنَ الْفَرْقَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَفَى بِهِ بَذْنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا) وَالْآيَةِ (27) مِنَ سُورَةِ الشُّورَى، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) وَفِي خُصُوصِ الْمَخْطُئِينَ وَالْمُنْحَرِفِينَ نَقَرْنَا فِي الْآيَةِ (118) مِنَ سُورَةِ الْمَائِدَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: (إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكُمْ). وَلَكِنَّمَا مَعَ ذَلِكَ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْكَرَ - وَإِنْ لَمْ تَقُمْ قَرِينَةٌ خِلَافَ ذَلِكَ - أَنَّ الْعِبَادَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ لِلْإِنْتِقَامِ مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ مِنَ الْعِبَادِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ. وَخِلَافَةُ الْبَحْثِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ فِسَادِينَ كَبِيرِينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَهْمَلْ هُوَئِلَاءَ، بَلْ أَذَاقَهُمْ جَزَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ جَزَاءُ الْآخِرَةِ وَحَسَابُهَا، وَالدَّرْسُ الَّذِي نَسْتَفِيدُهُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ جَمْعَاءُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَهْمَلُ الظَّالِمِينَ وَلَا يَسْكُتُ عَلَى ظُلْمِهِمْ بَلْ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَبِرَ وَنَتَعَطَّ مِنْ دُرُوسِ التَّارِيخِ وَأَحْوَالِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ.